المصدر: الانــــوار
التاريخ : ١٩٧٧/٩/١١

"ميت ابو الكوم" تستقبل الســادات في اجــازة تأمــل وعــبادة

٢٩٩١

يصلى في مسجد ميت ابو الكوم ▼

ميت ابو الكوم ـ من

عبد المنعم صبحي :

مثلما كانت القرية ، طريقا للحرية والثورة في حياة الكثير من القادة والزعماء من امثال ابرهام لنكولن وغاندي ونهرو وغيرهم ، كانت قرية « ميت ابو الكوم » ، بداية على طريق الثورة والنضال في حياة الرئيس انور السادات ... كانت الشمعة الاولى من حياته ، والنافذة الاولى التي اطل منها ، ومنها خرج الى الطريق الطويل الذي اوصله للرئاسة في عام ١٩٧٠ .

وميت ابو الكوم ، تحتل مكانة عالية في قلب السادات ووجدانه حتى انه لا يستطيع ان يغيب عنها طويلا . فهي الاصل والمنبت وبداية الطريق ، وهي صورة لمصر . فالعائلة المصرية والقرية المصرية هما الاساس لصورة مصر الكبرى .

وبين وقت واخر يذهب السادات الى ميت ابو الكوم ، مشدودا بالحنين يتأمل ما حدث ويفكر في الجديد . ورغم ان السادات في اجازة لمدة شهر ، ورغم انه ذهب الى ميت ابو الكوم ـ كما يتصور البعض طلبا للراحة ـ الا ان ايامه هذه كانت مشحونة باللقاءات والاجتماعات والاحداث ، فقد التقى بالقيادات المحلية والسياسية والشعبية في ميت ابو الكوم وتلا وشبين الكوم ، وحضر الافطار اكثر من مرة في المضيفة الملحقة بداره في ميت ابو الكوم والتي يدعى فيها كل ليلة على الافطار قرابة ٢٥٠ من الفلاحين . كما قام بافتتاح مسجد جديد في تلا « مسجد السادات » ، وانتهز فرصة وجوده في ميت ابو الكوم فقام بزيارة السيد البدوي في طنطا ، وعاد مرة اخرى ليواصل لقاءاته بالمجموعة البرلمانية وقيادات المجالس المحلية بالمنوفية .

وفي الحقيقة ان قرية ميت ابو الكوم ، تحتل مكانها في نفس السادات ، حتى انه يقول : ان السنين التي عشتها في القرية قبل ان انتقل الى المدينة ، ستظل بخواطرها وذكرياتها زادا يملأ نفسي ووجداني بالصفاء والايمان . فهناك تلقيت اول دروسي في هذه الحياة ... تعلمتها على يد الارض الطيبة السمحة ، التي لا تبخل

على الناس بالزرع والثمر . وتعلمتها من سماء قريتنا الصافية المشرقة . تعلمتها في ظل الجميزة الخضراء ، الصامدة ، وعلى لسان الصفصافة الخجول الوديعة . تعلمتها على حافة الجدول الصغير ، الذي ينقل الى الحقول ترياق الحياة في رضا وقناعة ... تعلمتها في ظلال الامسيات البريئة مع زملائي من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر في شوارع القرية الساكنة الهاجعة .

ميت ابو الكوم

وميت ابو الكوم ، قرية صغيرة وادعة آمنة ، لا تختلف ملامحها عن اية قرية مصرية ، لا في نبتها ولا في بيوتها ولا في طرقاتها المتعرجة . رائحة الارض الطيبة تمتزج بعطر النبت والازهار اينما سرت واينما وقعت قدماك . لا تبعد عن القاهرة باكثر من ساعة تقطعها في المواصلات العادية ، القطار او الاوتوبيس . هذه القرية الصغيرة — الكبيرة ، لا يسكنها اكثر من ٢٥٠٠ نسمة ، ولا تزيد مساحتها عن الف فدان ، شهدت ميلاد السادات في ١٥ كانون الاول ١٩١٨ ، كما شهدت طفولته وايام صباه وشبابه . كما شهدت فترات هامة في حياته خلال الاربعينات عندما كان يلجا اليها هربا من الجو السياسي .

وفي هذه القرية تلقى اول تعليمه ، وطبعت على وجدانه الصور الاولى التي شكلت علاقته بالوجود والحياة ... والانسان ، عموما ، ابن البيئة ، نبت لها ، ازدهار لها ... وخير الرجال من قادة الى ساسة ومفكرين ، كانوا انعكاسا للبيئة وما نسج على وجدانهم منذ ايام الطفولة والصبا اثر في تكوينهم الى حد كبير ...

فغاندي الزعيم الهندي الكبير ، حمل في اعماقه ، طوال العمر ، القرية الصغيرة البائسة التي ولد على ارضها ، صورة الهند المصغرة ، حتى انه قال « دائما ، كنت احمل داخلي ، صورة العذاب والبؤس والشقاء التي رايتها منذ كنت صغيرا في قريتي . ان صورة الشقاء هذه ، نموذج مصغر لصورة الشقاء الكبرى التي تحياها الهند ، والتي لا بد ان تسقط عن قلوب ابنائها حتى يتمكنوا من العيش بلا مرارة او تعاسة او مهانة » .

ابراهام لنكولن ، محرر العبيد ، وحامل لـواء الديمقراطية الاميركية في منتصف القرن الماضي ، كان لطفولته وللظروف الصعبة التي نشا فيها فـي الغابات والانهار مع الفلاحين والصيادين ، اثرها في جعله واحدا من ابطال التاريخ . فقد ولد ابراهام لنكولن في كوخ خشبي صغير داخل مزرعة صغيرة في ولايات كنتكي المعروفة الان بلاروكاونتي . وقد كانت ايام طفولتهوصباه معذبة شقية، اتاحت له ان يرى بلاده عن قرب ، حتى انه قال عندما نصب رئيسا للولايات المتحدة في اذار ١٨٦١ : « لن انسى طول ما حييت تلك الايام العصيبة التي عشتها فـي صباي ، هائما ، شريدا ، فقيرا ، تعسا ، انتقل من فقر الى فقر ومن عذاب الى عذاب » .

هذه الايام العصيبة هي التي صاغت ابراهام لنكولن ، فالافراد كالامم ، حالات الشقاء والازمـة تشارك في صنعها وصياغتها .. « لو لم اكن تعسا لما احسست بتعاسة وطني ، ولو لم اكن شقيا لما احسست بعبودية وطني » ...

نهرو ، كان للظروف القاسية التي عاشها في قرى الهند ، اثرها في صياغة شخصيته وفي اقترابه من قلب بلاده . حتى انه قال « القائد لا يصنع من هباء . كل خلجة من خلجاته ، كل تصـرف مـن تصرفاته ، انعكاس لتربيته الاولى ، ولا افكر ان نشاتي الاولى كان لها الاثر الاكبر من حياتي » ...

كذلك قرية « ميت ابو الكوم » كان لها تاثيرها العميق في تكوين الملامح الاولى للسادات ... فقد كانت هذه القرية الصغيرة ــ الكبيرة ، بمثابـة الجامعة الاولى من حياته . هذه القرية لا يزيد عدد سكانها عن ٢٥٠٠ نسمة ، ولا تزيد مساحة ارضها عن الف فدان ، وتتبع مركز تلا ــ احد مراكـز المنوفية الثمانية ــ وتبعد عن شبين الكوم عاصمة محافظة المنوفية بـ ٢٤ كيلومترا ، بينما تبعد عن تلا ١٥ كيلومترا ، وتحوطها قرى زرقان وطـوخ دلكة .

وقرية ميت ابو الكوم ، التي لم تدخلها الكهرباء الا منذ سبع سنوات ، مـن الناحيـة الماديـة والاقتصادية ، قرية بسيطة فقيرة ، الملكيات فيها لا تزيد في المتوسط عن عشرة فدادين ، وابرز الاسر في القرية : السادات ، المصباغ ، ماضي ، بدر .. واسرة ماضي ، منها العمدة محمد محمدماضي،

الذي التقيت به ، وتحدث معي في فخر واعتزاز ، كيف ان هذه القرية الوادعة ، الامنة ، قد شهدت ميلاد السادات . فقد ولد على ارضها في بيت ريفي صغير ، تحوطه اشجار الجازورينا والسيسبان والتمرحنه .

ولد في بيت قريب من مسجد ابو الكوم « سيدي ابو القوم » ، الذي يتوسط القرية ، والذي ينسج الفلاحون حول بركاته وكراماته الكثير من الحكايات. فهم يقولون ، ان « ابو القوم » كان واحدا من رجال سيدي شبل ، الذي يعرف بامير الجيوسن وجاء الى القرية منذ ١٤ قرنا ، واستقر به المقام ، ولما مات اقام اهل القرية له مقاما اعترافا منهم بافضاله وماثره على القرية في البر والتقوى والجهاد . وسميت القرية التي كانت بمثابة ربوة ، والتي كانت تعرف باسم « غربة الربوة » ، باسم « قرية ابو القوم » ، وتحورت مع الزمن الى ميت ابو الكوم . وسيدي ابو القوم ، او سيدي حسن الكومي ، يلتف حوله اهل القرية والقرى المجاورة في كل عام في مولده للاحتفال به ...

وكثيرا ما كان السادات ، ومنذ ان كان صغيرا لا يتجاوز عمره العاشرة يتوجه الى المسجد مع رفاقه واصدقائه ، يستمع الى القرآن والابتهالات . فقد كان في طفولته وصباه محبا للقرآن ، حتى انه حفظ القرآن كله وسنه لم تصل بعد الى الثانية عشرة. والشيخ عبد الحميد عيسى ـ شيخ كتاب القرية الذي توفي منذ فترة ليست بالبعيدة ، اكد لي عندما التقيت به قبل وفاته هذا ، واذكر كلماته التي قال فيها « اذكر ان السادا ت، عندما جاء الى الكتاب، في صغره ، وكان ذلك في حوالي سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، كان تلميذا جادا ، محبا للقرآن . واذكر ان اباه قد اوصاني بان احفظه القرآن بأسرع وقت ممكن ، ولم يكن الاب يعتقد ان ابنه سيحفظ القرآن كله في فترة وجيزة كالتي حدثت » . وكان السادات يجل الشيخ عيسى ، ويطلبه عندما يذهب الى القرية .

كان السادات ، الصبي الصغير ، في ذلك الوقت ، لا يتجاوز من العمر العاشرة ، عندما كان يتردد على مقام سيدي ابو الكوم ، في الظهيرة والعصارى يخلع حذاءه ، ويستلقي طلبا للراحة على الحصير او القياس ، يردد القرآن ويحفظه .

وفي الامسيات كان يخرج مع رفاقه واصدقائه الى المزراعية ، يتمشون ، ويتنفسون هواء القرية ، وكانوا يعودون قبل غروب الشمس الى بيوتهم ، لان قرى مصر كانت تحيا في العتمات والظلمات من آثار الحرب التي جثمت على صدر مصر طويلا .

قريبا من مسجد ابو الكوم ، يقع كتاب القرية ، او بعض اطلاله التي اعيد ترميمها .. وبيت السادات في القرية ، بيت متواضع ، ليس له اسوار عالية . في الخارج المصطبة والمضيفة التي يجلس فيها مع اهله وعشيرته واصدقائه اذا ما زار القرية . وحول البيت تنتشر اشجار السيسبان والجميز والمانجو والنمرحنة والجوافة ، وتمتد الدروب لتتشابك بحواري وازقة اخرى لتشكل القرية الصغيرة .. الكبيرة . وقد فتحت المضيفة الملحقة ببيت السادات طوال رمضان ، وكان يفد عليها في كل افطار حوالي ٢٥٠ شخصا وكان يستقبلهم السادات بنفسه في بعض الايام ، وفي بعض الاوقات كان يقف في انتظارهم سيد عبد الغفار عضو مجلس الامة وسكرتير حزب مصر عن دائرة تلا التي تتبعها « دار السلام » ــ او قرية ميت ابو الكوم ، ويجلس مع الفلاحين وبصحبته عمدة القرية الشيخ ماضي وغيرهما ممن يستضيفون الزوار ...

وقد اتبع تقليد جديد في هذا العام بالنسبة لمن يدعون من الفلاحين في المضيفة ، طبعت تذاكر دعوة لاستضافتهم كنوع من التكريم لفقراء الفلاحين في المنطقة .

في هذه الدروب الصغيرة التي تضمها القرية ، نبتت الايام الاولى للسادات ... كان طفلا صغيرا فقيرا ، نشا في اسرة متوسطة الحال ، جاهدت وبذلت الكثير حتى الحقته بالمدرسة الحربية .

ان انطباعات الطفولة التي ظل السادات ، زمنا طويلا يحسب انه قد نسيها تماما ، والتي عادت بعد ان مر عهد الاحلام في حياته ، هذه الانطباعات، هي التي تحدث عنها في اكثر من مناسبة ، وهي التي شاركت في صياغته الاولى . فمن خلال علاقته بفلاحي القرية ، تعرف على حياة الفلاحين التعساء ، وبالتالي ، تعرف على بؤس مصر ، فالفلاحون يمثلون السواد الاعظم من الشعب ،

وهم يمثلون ٢٠ مليونا من الانفس ...

نظر السادات حوله بعينيه ...

نظر الى القرية الصغيرة « ميت ابو الكوم »..

نظر الى البيوت المصنوع معظمها من الطوب اللبن والاجر ، والى الاشجار ، وعيدان القمح اللينة وكيزان الازرة في الغيطان ، ولم يكن بعد صبيا ، ثم نظر الى الفلاحين ، الذين يفترشون الارض على الترعة وتحت شجرة الجميز او الى جوار الساقية او على الارض المجاورة للمصرف، ياكلون الجبن القريش والبصل او السريس والجعضيض، ثم تنهد طويلا في الم ... كيف يعطى هؤلاء هذه الخضرة العظيمة، نبت الارض ، كل نبت الارض الاخضر ، ولا ياخذون الا الشحيح ، الشحيح جدا من الطعام ؟!

ونظر الى بيوت الفلاحين ، معتمة معظمهـا ، بائسة معظمها ، ليست الاحجرة في الغالب الاعم ، تعلوها كوة صغيرة ، يتسلل منها الضوء الكابـي للشمس في النهار ، ولا يزورها الضوء في الليل الا في الليالي المقمرة ... واحس بالحزة والحسرة .. كيف يحيا هؤلاء داخل هذه البيوت الوضيعة ، وهم الذين يمنحون الحياة لكل الناس بقوة كدحهم اليومي وبصبرهم الذي لا يكل ...

في اجازات المدرسة الصيفية ، لم يكن يذهب الى المدن ، او الى الشواطىء كابناء البورجوازية الموسرين ، بل كان يذهب في صباه وشبابه الـى ميت ابو الكوم ، يتنفس مع ابناء الفلاحين الصيف والعذاب والشقاء ... لقد كانت طفولته ، قلقة ، شقية ، شريدة ، يملؤها الحلم بامل عظيم ، امل ان يرى عيون بلاده بلا دموع وبلا تعاسة ...

علاقة السادات بقريته

ان علاقة السادات بقريته قوية عظيمة ، علاقة روحية وفكرية ونفسية وجدانية ... تماما كعلاقة النبت بالنهر .. وربما هذا ما جعـل السادات يقول :

« زرت بلادا كثيرة ، لكن اجمل منظر ترتاح له نفسي بيوت اهلي في هذه القرية .. ميت ابـو الكوم » .

وقد قال لي اكثر من واحد من قرية ميت ابو الكوم ، ان اجمل لحظات حياة السادات ، هي تلك التي يقضيها وسط الفلاحين ، بين اهله وعشيرته ، في بساطة وعفوية وتلقائية ، يجلس على المصطبة ، ويستمع الى مشاكلهم في حب وتفان ، وينصت الى كل الشكاوى ، وينادي بين الفينة والاخرى على احد الصبية ليناوله القلة ، ليرتوي وينصت الى بقية حوار الاهل والاقارب والاصدقاء وابناء القرية ... وبعد صلاة العشاء بقليل او كثير يخرج الى الغيطان في جلبابه ليرى الدروب والازقة والصفصاف وهو يعانق القمر في ترعة الباجورية ... والقرية في نظر السادات ، هي الصورة المصغرة ، والاولى للمجتمع ، ولا يمكن فهم مشاكل المجتمع ، ككل في تنوعها وفي تعقدها ، دون فهم ((الصورة المصغرة)) . القرية ..

وعن طريق قرية ميت ابو الكوم وملاحقة مشاكلها ، والاقتراب من قلوب ابنائها ، كانت ((الانفتاحة)) الاولى للسادات نحو محاولة فهم مشاكل المجتمع المصري العريضة . لقد اثارت القرية ، في نفسه ، سؤالا ملحا ، منذ ان كان طالبا بالمدرسة الحربية ، في بداية الثلاثينات : ((لماذا يحيا الناس هنا في الم وتعاسة ، بينما يمرح غيرهم في المدينة ويطربون ، رغم ان هؤلاء يزرعون كل شيء في المدينة ؟)) .

ومنذ البداية ، احس السادات ، بذلك القهر الواقع على كاهل الفلاحين في مصر ، فهم يعطون ولا ياخذون ، يمنحون الثمار بينما تداس اعناقهم ومصائرهم بالاحذية ، يحيون في الظلام وفي ظلال النسيان ، ولا مستقبل لهم ، ولا يملكون الا الحسرة والاحزان ... وتعمق هذا الاحساس وتاصل لدى السادات ، عندما بدا يقرا عن الثورات ويدرس التاريخ السياسي والاقتصاد السياسي ... وقد احس ، منذ البداية ، انه لا يمكن التحرك ، او فهم الاسباب التي تجسد المأساة دون دراسة وهضم تاريخ هذا الشعب ، ومنذ بداية الحياة على ضفتي النهر ... ومن دراسة السادات لحضارة وتاريخ مصر ، خرج بنتيجتين جوهريتين : اولا .. ان ماساة الشعب

في مصر تكمن طوال سبعة الاف سنة في ذلك التناقض الواقع بين السواد الاعظم المقهور والاقلية المستغلة والقاهرة . ثانيا ، انه لا يمكن حل هذا التناقض ، الا باعادة الحق الى نصابه ، واقرار العدل والقانون والغاء كافة الظروف التي تضع المواطنين في حالة خوف وذعر وضمان لمستقبل للشعب وتامين واتاحة الديمقراطية وجعلها الاسلوب الحقيقي لحل كافة المشكلات ، وهذا لا يتاتى الا بمزيد من الاقتراب من الشعب ومشاكله ..

بائع العرقوس

ذات يوم ، زار السادات قرية ميت ابو الكوم، وجلس بين اهله واقاربه ومعارفه في القرية . جلسوا في الغيط ، يحتسون الشاي الاسود ، ويتحدثون في مختلف الامور ، وكان السادات ، لم يزر القرية وقتها منذ سنوات لانشغاله بالثورة مع زملائه في مطلع الخمسينات .. كان الوقت يقارب ، الرابعة او الخامسة بعد الظهر ، وكان ذلك الوقت يعني للسادات شيئا ما ، وفي هذا المكان بالذات ... ولما مر الوقت ، واقتربت الشمس من المغيب ، تلفت السادات حوله بمنة ويسرة وكانه يترقب زائرا ما ، ثم لما اعياه الامر ، سال في دهشة :

ـ اين عم شحاته بائع العرقوس ؟

فقال احد الجالسين :

ـ لم يعد يمر !

فسال السادات ، في دهشة :

ـ ولم ..؟

فقالوا له ، انه اصبح لا يبيع العرقوس . فطلب منهم ان ياتوا به ، وكان المساء قد تسلل الى المكان ، ولف كل القرية ، لكن السادات اصر ان يرى عم شحاته بائع العرقوس .

ولما جاء عم شحاته ، سأله السادات :

ـ يا عم شحاته .. لم تعد تبيع العرقوس ؟

فقال الرجل في خجل .. ان القدرة قد تحطمت ، ولم يعد يملك المال ليشتري قدرة جديدة ، فحزن السادات ، وقال له في الم :

ـ انت احد معالم قرية ميت ابو الكوم يا عم شحاته .. كام سنة وانت تبيـــع العرقوس ؟ عشرات السنين ... لا ... لا ... لا يمكن ان نتوقف ... ستشتري قدرة جديدة .

ولم يمر يوم واحد ، حتى عاد عم شحاتـه بصوته المجلجل يملأ القرية ، ينادي على العرقوس والبسمة تضيء طريقـه والاطفـال يتشبثـون بثيابه ، وهو ينادي : الخمير المثلج .

وبين اهله وعشيرته ، يتحدث السادات ، دائما ، انه لا يريد للقرية ان تتغير ، ولا يجب ان يتوقف فيها اي شيء ، فهذه القرية جـــزء منه ، من دمه ، من فكره ، من تكوينه ، وهو يحس بالغربة كثيرا اذا ما غاب عنها ، فكـــل شيء فيها يذكره باشياء عزيـــزة على القلب والوجدان والنفس ....

عندما كان السادات في السادسة والسابعة من عمره ، يذكر اهل قرية ميت ابو الكوم مـن المعمرين ، وبالذات الاقارب والاهل والاصدقاء ، كيف كان الصبي محمد انور السادات يذهب الى « مدرسة الاقباط » في طوخ دلكة ، مشيا علـى الاقدام ، واحيانا على حمار اذا تـــا كانت الشمس ملتهبة ، وكيف كان الصبي الصغير يلعب ويجرى مع الاطفال حول مقام سيدي حسن الكومي في العصاري والامسيات . كما يذكرون ان الصبي الصغير عندما انتقل الى المدينة والتحق بالمدرسة الابتدائية ثم بالثانوية ثم بالحربية ، كيف لا ينقطع في الاجازات عن القرية .. فقد كان يأتي فـــي اجازات نصف السنة ، كما كان يقضي اشهـر الصيف كلها في القرية ... ويذكر بعض الاهالي من المعمرين ، حادثة مثيرة وقعت للصبي عندمـا كان يستحم في الترعة وكاد يغرق ، وكيف هلعت الاسرة بهذا الحادث ...

وعندما زار السادات قريته بعد عام من قيام ثورة ١٩٥٢ ، رفض أن يدخل القرية في موكب رسمي ، فضل أن يزور قريته بشكل عادي ،

مثلما كان يزورها في شبابه حتى لا يحس بـاي تغيير .. وفي ذلك العام ، زار كل الاماكن التي كان يحبها والتي لها اثرها في حياته . زار مقـام سيدي الكومي ، وزار كنيسة العذراء ، والمدرسة التي تعلم بها في طوخ دلكة، ودخل نفس الفصل الذي كان يتعلم به ، والتقى بمدرسة مينا ميخائيل، كما التقى بالشيخ عيسى شيخ الكتاب ...

واليوم ، يسرح السادات بخاطره في تلـــك الايام ، وهو يطوف بقريته ميت ابو الكوم ، وهو يلتقي باهله وعشيرته ، وهو يتحرك في دروب وطرقات القرية ، وهو يلتقي بالقيادات السياسية والبرلمانية والشعبية . فمصر هي العائلة والاسرة الصغيرة .. وصورة الاسرة الصغيرة هي القرية .

قبل ان يتحرك السادات الى منطقة البنـاء والعمل ، منطقة قناة السويس مع ممدوح سالم وعثمان احمد عثمان وبقية الركب الذي يصاحبه ، نظر طويلا الى الدروب والغيطان والبيوت التي تضمها قريته ، ومرت على مخيلته عشرات الصور التي تشكل وجوده السياسي والفكري والمادي والاجتماعي ، طفولته ، ايام صباه .. شبابه ، ايام الكتاب والشيخ عيسى التي تذكر بالعريف والشيخ والكتاب في رواية طه حسين ، الايام ، التي كتبها عن عزبه الكيلو في الصعيد ....